اللغة العربية: واقعها ، مستقبلها والعلاج

أ.د. علي توفيق الحمد

تمهيد:

اللغة ظاهرة إنسانية اجتماعية، تتألف من أصوات منظمة تنظيمًا مصطلحًا عليه بين أفراد كل جماعة متآلفة من البشر، يطلق عليها جماعة لغوية، يشترك أفرادها في نظام لغوي واحد، متفق عليه بينهم، اعتاده أفراد هذه الجماعة، إذ نشأوا واعتادوا نظامًا صوتيًا صرفيًا معجميًا تركيبيًا دلاليًا موحدًا معينًا.

ولكل بيئة لغوية نظام لغوي خاص بها، ألفه أبناؤها وأفرادها؛ اعتادوه وأجمعوا عليه؛ وقد تتفق غير بيئة أو جماعة في أحد أنظمة لغتها أو أكثر؛ بحسب أصولها، أو قربها أو بعدها من بعضها في الاختلاط والمصالح.

وكلما ابتعدت الجماعة اللغوية عن شقيقتها – ومع مرور الزمن – تتطور لغة (لهجة) كل جماعة، ويصبح لها خصائص لهجية خاصة بها؛ تقترب أو تبتعد عن لهجة شقيقتها بحسب مؤثرات اجتماعية أو ثقافية، وبحسب الظروف والحاجات.

وإذا ما استمر التباعد وطالت القطيعة بين هذه الجماعات، وباختلاطهم أو اختلاط بعضهم بالغرباء والأجانب والأعاجم، وبأثر من ظروف كل منها واختلاف بيئتها وحاجاتها، إذا ما استمر ذلك ازداد البعد وظهر الاختلاف اللساني (اللغوي)(١).

وهذا الاختلاف الناشئ هو اختلاف لهجي لنظام لغوي واحد؛ إذا لم يكن – ولم يحصل – انقطاع وبُعد بين بطون الجماعة الواحدة، ولم يحصل اختلاط طويل واسع بين الأمم واللغات ذات الأنظمة والأصول الواحدة.

والأمر الآخر: لا شك أن للعربية الموحدة الأم نظامين(٢)، أو مستويين، مستوى عفويّ يتكلم به العربي: الكبير والصغير، والرجل والمرأة؛ يتكلّم به في بيئته وأسرته وقبيلته ومع نُظرائه؛ يتكلمه على سجيّته وسليقته، وهذا المستوى يكون موحّدًا بين أفراد البيئة الواحدة في كل مستوياته وخصائصه، ولا يقتضي من المتكلم جهدًا أو تكلّفًا أو تدقيقًا أو عناء.

أما إن أراد هذا العربي مخاطبة جماعة لها سِمة رسمية، أو أراد التحدث في مناسبة ذات مستوى اجتماعي معين، أو كان في تلك الجماعة أعيان أو أفراد من غير قبيلته، فأرى أنه كان يتعمّد تنميق لغته، وتخيّر ألفاظه، ويتعمد الصنعة في تلك المناسبة.

إذن أرى أن العربي العادي – حتى العاميّ – كان يستخدم مستويين – مثلاً - في كلامه واستخدامه اللغوي: بحسب الغرض (الموضوع)، وبحسب المقام، أي بحسب من يوجَّه إليه الخطاب أي على قدْر مستواه ومكانته، أو بحسب المناسبة أيضا، لأن بين المخاطبين أناسًا ذوي مستويات لغوية (لهجية) مختلفة ومتفاوتة، وذوي مقامات وثقافات متفاوتة أيضا، وغرض المتكلم إبلاغهم والتأثير فيهم.

وكلما تباعدت الجماعات اللغوية، واختلفت المعارف والثقافات؛ نشأت لغات وليدة من اللغة المشتركة الأم؛ كما حصل في ولادة لهجات العربية الفصحى من المجموعة العربية الشمالية (العدنانية)، واللهجات المحمولة عليها، وأشهرها اللهجات العربية البائدة كالصفاوية والثمودية واللحيانية، ولهجات: الحجاز ونجد وغايرها(٣)؛ ولكنها تبقى تحمل سِمات وخصائص من اللغة الأم.

إذن: لابد – في رأيي – أن يكون الخطاب اللغوي – حتى من الشخص المتكلم الواحد – ذا مستويات متفاوتة، بحسب المقام، وبحسب مستويات المتلقّين والمخاطبين، وبحسب قدرة المتكلم وتمكّنه، وبحسب الغرض أو المناسبة، حتى يبلغ المتكلم هدفه، ويحقق غرضه، وهو الإفهام والتأثير، وتلك هي البلاغة، وذاك هو غرضها الأسمى؛ فلكل مقام مقال.

هذا التمهيد أو المقدمة؛ أردتها لأثبت أو أؤكد – أن استخدام اللغة، أيّ لغة، يكون على مستويين(٤):

أ- مستوى رسميّ عالٍ مهذب، منمّق وبليغ، يراعي قواعد اللغة العالية، من نحو وصرف وتراكيب ودلالة؛ وهذا المستوى يناسب مقامات خاصة تفهمها، ومناسبات تقتضيها.

ب- مستوى إخوانيّ عاميّ: يناسب غرضًا شخصيًّا إخوانيًا، يسود بين أفراد الأسرة والعائلة، أو الأصدقاء والأخلاّء، وأغراضه إخوانية ليست رسمية؛ فالشخص حينما يخاطب زوجه وأقرانه وأفراد عائلته يتبسّط، ويتحرّر من قيود اللغة الفصيحة الرسمية.

كما أرى أن المستوى الرسميّ العالي المهذب يناسب اللغة المكتوبة، في زماننا هذا على الأقل؛ لأن بعض الأصوات العامية المحرّفة والألفاظ العامية لارسم متفقًا عليه لها.

وقد استمر وجود مستويين في التواصل اللغوي إلى وقتنا الحاضر(٥)؛ فنجد المستوى العالي والأدبي في المواقف الرسمية، وبخاصة على المستوى المكتوب والرسمي، أما على مستوى الحديث والتواصل الإخواني الشفاهي – إذ يميل المتحدث أو المرسل إلى سليقته، وإلى التفاهم والتعبير عن عواطفه أو أفكاره، أو غرضه وطلباته – فيميل إلى أيسر السبل وأسرعها، وتلك هي البلاغة؛ إذ غرضها بلوغ التواصل والتأثير، من غير أن يشغل المتكلم ذهنه بمعجم ومفردات فصيحة، وتراكيب لغوية سليمة، ويظهر في اتصاله اللغوي التكلّف والتعمّل، وربما لا يناسب المقام، ومستقبلي الرسالة اللغوية المقصودة.

المبحث الأول: المشكلة ومظاهرها

لابدّ للباحث الذي يتصدى لمشكلة ما أن يدرس جوانبها بدقّة أوّلاً، لعلّه يهتدي إلى الداء الفعلي ليتمكن بصبره وخبرته من تشخيص الداء وأسبابه ومظاهره، وليتمكن من علاجه ووصف الدواء الناجع المناسب.

وهنا أقول: إن من يهتم بالشأن العام للأمة، ومن يهتم – خاصة – بالشأن اللغوي، وبحال العربية في مجتمعاتها وبين أبنائها وأهلها لا يكاد يصدّق حواسّه في مرئياته ومسموعاته وملموساته ومحسوساته، إذ وصلت العربية بين أهلها إلى مستوًى لا يليق بأمة العروبة والإسلام، ولا يليق بلغتها ودينها وتاريخها وتراثها ومكانتها بين الأمم.

فواقع العربية في عرينها وأوطانها وحِماها مهدّد، لا يبعث على الاطمئنان، ولا يدل على حيوية أو غَيرة أو تنبّه لخطورة الواقع والحال، هذا واقعها بين أهلها وأبنائها.

أما حالها خارج حدود عرينها وأوطانها، فلا يحسّ المراقب بأثر يذكر، أو بمكانة لها بين لغات العالم المتحضر، إن على مستوى العلم والثقافة في مجال الإبداع والتأليف والنشر، وإن على مستوى الإعلام بأنواعه وروافده المختلفة، حتى أنها أصبحت عاجزة عن المواجهة وأداء وظائفها ومهماتها في داخل حدود أوطانها.

ولولا أن الله عز وجل شرّفها وكرّمها بكونها لغة القرآن الكريم، ولغة العبادة والصلوات المفروضة على جميع المسلمين من كل الأجناس والأقطار، لولا ذلك لربّما – وأقول لربّما – دخلت في مجموعات اللغات الميتة – المنقرضة-.

والمشكلة في وجه العربية مركّبة معقّدة؛ فهي تئنّ بين فكّي كَمّاشة؛ غول العامية (الازدواجية)، وهجوم الثنائيات (الثنائيات اللغوية أو المتعدّدة) من اللغات الأجنبية، وتزداد المشكلة تعقيدًا لِكون إسهامنا نحن العرب بالعلوم وبحوثها واكتشافاتها محدودة، أو معدومة. أمّا إذا نظرنا إلى الاختراعات والكشوفات والبحوث التي أسهم بها علماء عرب ونشروها بلغات أعجمية؛ فإنها تعدّ من إسهام الدول والأمم التي نشروها بلغاتها، ومن إنتاجها.

ومن أدلّة التفريط بلغتنا ونشرها ما حدث سنة ١٩٤٩م بعد تحرّر دولة باكستان الكبرى الشقيقة بشطريها آنذاك: الغربي (دولة بنجلادش)، والشرقي: دولة باكستان الحالية، إذ كانتا دولة واحدة؛ فبعد أن تحرّرت من الاستعمار البريطاني ومن سيطرة الهند، طلب زعيمها وقائدها البطل المرحوم محمد علي جناح – طلب من جامعة الدول العربية أن ترسل إليهم معلمين وكتبًا مدرسية ومطبوعات عربية؛ ليفرض العربية لغة رسمية في بلاده، لغة القرآن الكريم، ويجعلها لغة الدولة المسلمة الحديثة التي انفصلت عن الهند؛ ليقطع كل علاقات بلاده – الثقافية والتربوية والعلمية والتعليمية – بالهند؛ ولكن – للأسف وللخيبة – لم يبادر العرب إلى إجابته، وكسب دولة باكستان الكبرى الموحدة الإسلامية إلى حظيرة الدول العربية والثقافة العربية، فأضاعوا وفَقدوا شعبًا مسلمًا شقيقا يفوق عدده عدد أبناء الدول العربية مجتمعة، كان يتمنى أن يحتضنه أشقاؤه العرب، ولكن المسؤولين العرب أضاعوا تلك الفرصة الثمينة النفيسة التي لا تُعوّض؛ وكلّنا يعلم مكانة باكستان الدولة القوية التكنولوجية النووية الناهضة الحديثة الآن.

ومن مظاهر التفريط بلغتنا الشريفة – صاحبة الجلالة – والاستهانة بها من أهلها وفي عرينها وبين أبنائها - . تلك

النظرة الدونية - في المجتمعات العربية ووسائل إعلامها ودوائرها - للعربية ودراستها ومدرّسيها ودارسيها. وعدم تقدير معلمي العربية والثقافة الإسلامية - وأأسفاه - ماديًّا أو معنويًّا، وربما إظهارهم في وسائل الإعلام المرئية والمسموعة بمظاهر دونّية غير كريمة، لا تليق بهم وبما يمثّلون ويحملون من مقومات العزة والسيادة الدينية والقومية؛ وما يتركه هذا السلوك الهدّام من أثر في نفوس أبناء الأمة الغَيارى المخلصين، وما يخلّفه في نفوس النشء والأجيال التي نرتجي منها الخير والعزة.

ومن المظاهر السلبية السائدة سلوك أنصاف المثقفين، وبعض المثقفين ثقافات أجنبية – سلوكهم اللغوي المشين الجاحد تجاه العربية والتراث العربي والثقافة العربية في الخارج، وفي بلادنا وشوارعنا وأسواقنا ومؤسّساتنا، في المدارس والمعاهد العلمية والجامعات، والدوائر الرسمية الحكومية، والمؤسسات الخاصة؛ فقد تشعر أحيانا - أيها العربي الغيور – أنك غريب في بلد أجنبيّ أعجمي. ومن المصائب العظمى أن هؤلاء الشاذّين المخرّبين الهدّامين يجدون عندنا من يُسندهم ويشجعهم، ويقلّدهم في انحرافهم اللغوي والحضاري، وفي تنكّرهم ونكرانهم لأصولهم ومصدر وجودهم، ورمز عزتهم، ألا وهو اللغة العربية الشريفة والقيم الإسلامية والشرقية، وتراثنا الذي أفاد العالم، وقدّره ويقدّره كل منصف وصادق وأمين من كل الأمم، من أمثال العالمة الألمانية زيجريد هونكه، في كتابها العلميّ "شمس العرب تشرق على الغرب".

ومن مشكلات العربية بين أهلها: حالها في كثير من الدوائر الرسمية والدواوين الحكومية في بعض بلادنا العربية، بل أكثرها.

ثم من المشكلات التي تواجه العربية: حالها في المؤسسات التعليمية العربية: في المدارس والمعاهد والكليات والجامعات، ولا يقل المستوى سوءًا في أقسام اللغة العربية في الجامعات، وسبب ذلك أن قبول الطلبة في الكليات والمعاهد الجامعية يعتمد على مجموع درجات الطالب التي أحرزها في امتحان الشهادة الثانوية العامة؛ هذا إذا أحسنّا الظنّ، وتوافرت النزاهة، ولم تتدخّل الوساطة والمحسوبيات والاستثناءات، وتشترط الكليات المختلفة مجموعًا عاليًا من الدرجات في الثانوية، وأقسام اللغة العربية في الجامعات - وبعض الأقسام الأخرى – تقبل الطلبة أصحاب المجموعات المتدنّية؛ فيدخلون في أقسام اللغة العربية لأنهم أخفقوا ولم يُقبلوا في التخصصات الجامعية الأخرى التي تشترط مجموعًا أعلى من الدرجات.

ويستمر هذا الضعف في سنوات الدراسة الجامعية، وقلّما يتحسّن مستوى هؤلاء الطلبة بشكل مطَمْئِن ومُرضٍ، فيتخرّج أكثرهم ضعافًا، ويتولّون الوظائف وأمانة التعليم.

كما يستمر هذا الضعف إلى الدراسات العليا؛ فيتخرج كثير من طلبة الدراسات العليا ضعافا، ثمّ يعتمد هؤلاء الخريجون على الوساطات والاستثناءات فيفوزون في وظائف التدريس الجامعي.

وتستمر – أيضًا – هذه السلسلة من الضعف وعدم الكفاية والأهلية إلى كثير من أعضاء هيئة التدريس الذين تبوّؤا مراكزهم بلا حقّ ولا كفاية، وبالوساطة والمحسوبيّة فيستمر الضعف في لغة التدريس والمحاضرات، ولغة الطلبة ومستوياتهم، ويستمر الضعف أيضًا في اختيار موضوعات الرسائل والأطروحات العلمية، وحتى في مناقشتها لإجازتها؛ وقد يُذهل الشاهد أو السامع لمناقشة رسائل الدرجات العليا (الماجستير والدكتوراه) في تخصص اللغة العربية: آدابها، ونحوها وصرفها وقواعدها، إذ تجري معظم المناقشات بالعاميات واللهجات المحلية من جانب الطالب، وحتى من جانب أعضاء لجان الامتحان والمناقشة، بشكل مقزّز، يبعث على الألم والحسرة من حال جامعاتنا ومعاهدنا العليا وخريجينا، حتى تصل إلى الشيوخ والعلماء، ولو مررت ببَهْو إحدى كليات الآداب وأقسام اللغة العربية لَنُذُهلت من حالنا، إذ قلّما تسمع محاضرًا يحاضر بالعربية السليمة، ولا أقول الفصيحة؛ فتلك دونَها خَرْط القَتاد عند أكثر المحاضرين.

أما إن سالت عن مستوى الطلبة والدارسين في أكثر جامعاتنا العربية، وعن قدراتهم اللغوية فسيسوءك الأمر؛ من لغة الطلبة ومستوى كتاباتهم، وترى ذلك في ملصَقات وإعلانات تزخر بالأخطاء التركيبية النحوية، والصرفية، والرسم الكتابي وسوء الخط أيضا، تجد كثيرًا من هذا في كليات الآداب، وأقسام اللغة العربية وكلياتها، وهذا الحكم ليس عامًّا، بل ينطبق على أكثرهم؛ وهم قلّما يسألون أو يحاورون بالعربية السليمة.

وكذا فإننا نجد أخطاء على مستوى (الرسم الكتابي)، وتركيب الجمل، وأخطاء نحوية أو صرفية، هذا في دواوين الجامعات ومُكاتباتها؛ أما في بقية الدوائر

الحكومية والمؤسسات فحال العربية هناك لا تَسرّ؛ وحَدِّث ولا حرج.

ومن يتأمل حال العربية ومستويات طلبة جامعاتنا، وحتى أكثر محاضريها يتألم، ويترحّم على جهابذة اللغة والنحو في بعض الجامعات العربية في خلال عقود النصف الثاني من القرن العشرين الماضي، من أمثال عباس حسن وسعيد الأفغاني وابني شاكر وناصر الدين الأسد، وغيرهم من الجهابذة البناة الأوائل، الذين لم تعرف ألسنتهم اللحن أو الخطأ.

ولو أردنا إيراد أمثلة على الحالة المفزعة التي وصلت إليها حالنا مع العربية السليمة – لغة القرآن الكريم، ولغة إبداعات الحضارة العربية الإسلامية، لغة العزة والوجود والسيادة العربية – لأوردنا عشرات كثيرة من تجاربنا وملاحظاتنا الشخصية الخاصة؛ ولدى غيرنا – بالتأكيد – أدلّة وتجارب وشواهد على تردّي الوضع اللغوي في مجتمعاتنا العربية؛ وما يزيد المشكلة حِدّة وإيلامًا أن معظم هذه الشواهد والأمثلة من ممارسة المتخصصين بالعربية ومدرّسيها.

- أخبرني مَن أثق به أنه أجرى اختبارًا سريعًا لمجموعة من معلمي اللغة العربية المشاركين في دورة تربوية تنشيطية؛ وبعد أن وزّع عليهم ورقة فيها سؤال نَصّه: (اكتب حروف الهجاء العربية مرتبة)، وإذا بأحد المعلمين تظهر عليه الحيرة والاضطراب يستدعي المحاضر ويسأله قائلاً: "يا دكتور، أتريدها مرتبة أو بالترتيب"؟! فأجابه المحاضر – مستغربًا ساخرًا: لا، أنا أريدها مرتّبة!! فردّ عليه المعلم: شكرًا، أنا لا أحفظها مرتبة، أنا أحفظها بالترتيب"!!!!.

- معلمة لغة عربية تدرّس نصًّا أدبيًّا لطالبات الصف الثامن، يتضمّن ذكرًا لاسم "الحجاج ابن يوسف الثقفي"؛ فأرادت المعلمة أن تظهر للزائر – وهو مُمتحِن لهؤلاء المعلّمين والمعلمات – أرادت التوسّع والتفلسف والتظاهر – وليتها لم تفعل: فقالت: "أتعرفن يا بنات لماذا سُمّي – (لُقّب) الحجاج بالثقفي"؟، وأردفت – هي – مجيبة قائلة: "لأنه مثقف"!!! فأجابت – هي نفسها – موضّحة؛ وليتها سكتت ولم تُجِب!!!.

- موجّه (مشرف) لغة عربية زار مدرسة إناث ابتدائية للإشراف والتوجيه، وعقد اجتماعًا توجيهيًّا للمعلمات، وكان يحادثهن بلسان عربي فصيح سليم، وكان بين المعلمات معلمة جريئة لها بهذا المشرف صِلة رحم بعيدة، وعلاقة اجتماعية ضعيفة، فوقفت إليه بعد الاجتماع مجاملة، فردّ مجاملاً باللغة الدارجة التي استخدمتها المعلمة، وإذا بها تبادره قائلة – بلهجتها –: "إيه يا أستاذ، ها أنت تعرف تحكي عربي مثلنا"!! ثم أردفت قائلة: "هل تظن أننا – كُلنا – فَهمنا من كلامك وتوجيهاتك شيئا؟!!، وانتهى الاجتماع واللقاء.

وثَمّ حادثة – أو خبر طريف، له علاقة بي وبسلامة اللغة والبلاغة–؛ كان المشرف على بحثي للماجستير أستاذ دكتور عالم بفقه اللغة العربية واللغات السامية القديمة، وعالم ببعض اللغات الأوروبية الحديثة، إذ حصل على شهاداته العليا من إحدى البلاد الأوروبية، وكان رحمه الله وأحسن إليه – متزوّجًا من سيدة أوروبية؛ وكان – في الآن نفسه يشرف على أخي وأستاذي د. فائز فارس الحمد – رحمه الله –، وكان هذا الأخ ضليعًا متمكّنًا في العربية وبعض اللغات السامية، وكان له منزلة خاصة وعالية في نفس ذلك الأستاذ المرحوم المشرف؛ وكان أخي – فائز فارس الحمد – يتعمّد التحدث باللغة الفصيحة السليمة، حتى مع تلك السيدة الأوروبية؛ بينما كنت – أنا – أخاطبها بلهجة عربية مكسّرة قريبة من لهجتها، وإذا بها تبادرني – يومًا – قائلة بلهجتها: "إنت علي بتعرف عربي أكثر – أو أحسن – من فايز".

وأعقّب الآن قائلا: أنا لم أكُ أعرف من العربية جزءًا مما كان يعرفه أخي د. فائز رحمه الله؛ لكنّه كان لا يحبّ أن يلحن، ولو كان في ذلك مراعاة للحال والمقام.

ولو انتقلنا إلى لغة التخاطب في المجتمعات العربية لوجدناها لهجات منحرفة، قد يعجز الحضري عن فهم لهجة البدوي ومقصده، والعكس بينهما صحيح.

حدثت حادثة معي قبل ما يقرب من نصف قرن؛ إذ كنت معلّمًا في المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية، وأسكن في بيت لأخ سعوديّ كريم يعمل في شركة أرامكو للنفط، وهو من قبيلة "عتيبة" العربية في نجد، فحدث أن زراه والده العجوز الذي بلغ الثمانين من عمره تقريبًا، فأولم الابن، ودعاني مع مجموعة من الجيران، وبعد انتهاء العشاء استأذن الحضور – شاكرين – للانصراف، فأذن لهم، وعندما هممت أنا أيضا، طلب مني الضيف الوالد العجوز وابنه البقاء للسمر مع الوالد، إذ كنت أظهرت له المحبة

والملاطفة والمجاملة، فكان يسترسل – رحمه الله – في الحديث؛ وكنت بين الحين والآخر أطلب من ولده التدخل لتوضيح كلام الوالد، وشرح معجمه وألفاظه وتراكيبه لبيان معانيه ومقصوده.

ويعلم القارئ الكريم أن لكل منطقة جغرافية في وطننا العربي الكبير لهجة ومعجما ربما لا يفهمها أخوه العربي الذي جاء من منطقة عربية أخرى؛ وأقول: إن هذه الفوارق يمكن أن تزول وتختفي – أو تضمحلّ أو تَقِلّ – بانتشار الثقافة والتعليم والنشر، وتيسير الاختلاط بين أبناء البيئات والجماعات العربية، وبذلك تزول الفوارق اللهجية – على المستويات اللغوية المختلفة، أو تَقِلّ، حتى يُحسّ العرب بأصالتهم وأخوّتهم، ووحدتهم في الفكر والعلاقة والوجود، والانتماء والماضي والمستقبل والعطاء.

ومن المشكلات والمعوّقات في وجه سيادة العربية: أن لغة المحاضرة والتدريس في كليات العلوم النظرية والتطبيقية المختلفة في معظم البلاد العربية هي الأجنبية: (الإنجليزية أو الفرنسية) بحسب تبعيّة البلد العربي لثقافة الدولة التي كانت تستعمره، وما زالت تسيطر عليه ثقافيًّا وفكريًّا واقتصاديًّا وسياسيًّا؛ هذه المشكلة تهزّ الشخصية الشبابية العربية، وتزرع قناعة كاذبة زائفة لديه؛ أن لغته العربية قاصرة، ولا تصلح أو تناسب الأفكار والنظريات العلمية المعاصرة؛ ولا يمكنها أن تستوعبها؛ برغم أنها وسعت كل النظريات والكشوفات العلمية في زمنها، ولدينا شهادات واعترافات وآثار ومؤلفات تشهد للعربية أنها لغة علمية، فيها خصائص وإمكانات استيعاب أدقّ الأفكار والنظريات والعلوم والفنون والمخترعات، يشهد بذلك المكتشفات والمخطوطات العربية، وشهادات المنصفين من العلماء الأجانب أنفسهم.

ثم كيف تعجز العربية عن الوفاء والتعبير عن الأفكار والنظريات العلمية، وقد نجحت غيرها من اللغات التي لم يك لها تاريخ وآفاق وآثار وصلات بالعلوم إبداعية؟!!

وكيف تعجز العربية عن ذلك؟ بينما نرى معظم الأمم والشعوب تدرس وتدرّس، وتؤلّف وتنشر بلغاتها القومية، تلك اللغات التي لا تاريخ ولا عمق ولا كشوفات أو آثارًا علمية لها تعادل ما للعربية!!!.

أقول: كيف تدرّس كليات العلوم النظرية والتطبيقية في معظم بلادنا العربية؛ وفي بلدي بخاصة باللغات الأجنبية، برغم وجود مادة صريحة في أنظمتها بإرادة ملكية سنيّة تنصّ على أن لغة التدريس في كليات الجامعات هي العربية، إلا في حالات خاصة مُسوَّغة وبإذن خاص.

برغم وجود هذه المادة في أنظمتها نشهد الردة، وإهمال العربية والتدريس بالإنجليزية تحت نظر المسؤولين وسمعهم، ولا يتحركون لاستدراك هذه المخالفة وتصويب الوضع، وإنفاذ مضمون المادة المشار إليها، والانتصار للغتهم الشريفة، التي لا عيب فيها، لكنّ العيب في أبنائها.

ثم أين البحوث الأكاديمية العلمية المنشورة باللغة العربية؟! وأين الحثّ على ذلك والتشجيع عليه، ومحاسبة الأكاديميين العرب على إهمال ذلك، وليطمئن أولئك الزملاء العلماء الكرام الذين يحتجّون بأن نشر بحوثهم بالعربية لا يشتهر بين المتخصّصين عالميًّا؛ ليطمئنّوا أن البحث الرصين يبحث عنه المتخصصون بأي لغة كان، وسيتصدى المتخصصون من الأمم الأجنبية للاهتمام به والإفادة منه ومن نتائجه، ولا أشك انه سيجد من العلماء من ينقل هذا البحث – أو نتائجه على الأقل – إلى لغاتهم.

أما عن تعريب كتب التدريس العلمية للسنوات الجامعية الأولى والثانية، لإقراره على الطلبة باللغة العربية؛ فقد قام مجمع اللغة العربية الأردني بتفويض وتكليف من اتحاد مجامع اللغة العربية، قام هذا المجمع منذ بداية الثمانينيّات من القرن العشرين الماضي، واحتمل الكثير معنويًّا وماديًّا برغم حداثة إنشائه، وقلّة موارده، فتحمّل هذه الأمانة، وقام بجهود إدارية شاقة، وكلّف من كبار الأساتذة الجامعيين – كُلاًّ في مجاله وتخصّصه – مهمة الترجمة والمراجعة والتدقيق، وطبع المجمع هذه الكتب المترجمة، وأعلمَ كل الجهات المعنية ذات العلاقة في داخل الأردن وخارجه؛ ولم تستجب أي جهة أردنية أو عربية؛ وبقيت تلك الكتب المعرّبة حبيسة المخازن والمستودعات حتى تَلِفتَ أو كادت(٦).

ومن المشكلات والمعوّقات ذات الأثر السلبي في سلامة اللسان العربي ما نسمعه من الشباب والشابات العرب من عبارات التحية والمجاملة بلغات أجنبية، لا تدل إلاّ على جهل وتقليد واهتزاز لشخصياتهم.

ولعلّ أكثر المشكلات والظواهر ذات التأثير السلبي المدمّر للشخصية العربية والثقافة العربية ما نراه في شوارعنا وأسواقنا منتشرًا بشكل مقزّز خادش لكرامة كل غيور على هذه الأمة وشخصيتها

وثقافتها ومكانتها – ما نراه منتشرًا بلادنا العربية يثير الإشفاق والاشمئزاز، ما نراه من الإعلانات واللوحات واليافطات بلغات أجنبية، أو بلهجات عاميّة مبتذلة أحيانًا؛ لترويج البضائع وتسويق المقتنيات والمعروضات، بحروف أعجمية، أو كتابتها بحروف عربية، لكنّ الكلمات والعبارات أعجمية أو عامية.

وممّا يجرح الكرامة العربية ما حدث بيني وبين د. راينر الألماني أستاذ فقه اللغات السامية، الذي زرته في جامعة ميونخ، في أوائل التسعينيات من القرن الماضي، الذي احتفى بي، واصطحبني بجولة في الكلية، وكنا في الطابق العلوي، فمرّ بي يشرح ويُعرّف بقوله: هذا قسم اللغة الألمانية، وهذا قسم اللغة الإنجليزية، وهذا قسم اللغة الفرنسية، وهذا قسم اللغة العبرية، و.....، فأردت أن أفاخر بلغتنا، فسألته: وأين قسم اللغة العربية لطفًا؟ فبادرني بالإجابة: إنه تحت في الأسفل، وليته سكت!! وإنما أردف قائلا: إنه مع أقسام اللغات الميتة(٧)، اللاتينية، والآرامية، والكنعانية، و .....

ومن مظاهر هذا التردي أيضًا أن شخصًا عربيًّا – لا أودّ ذكر اسمه – كان في أواخر ثمانينيّات القرن الميلادي الماضي يعمل مترجمًا في شركة (سيمنز) الألمانية المشهورة للكهربائيات والإلكترونيات؛ ذكر أنهم أرسلوا دعاية وعرضًا باللغة العربية لإحدى الشركات العربية في بلد عربي، وما أثار الدهشة والخجل على حدّ قوله أن الردّ جاءهم من تلك الشركة العربية بالإنجليزية، ولم تردّ الشركة برسالة بالألمانية أو بالعربية. وتعلمون اعتداد الألمان بلغتهم، ونظرتهم إلى البلاد واللغات الأوروبية وغيرها!!!.

ومظهر ثالث: أن بلدًا عربيًّا شَكَّل لجنة وطنية للتعريب والمصطلح سنة ١٩٨٧م، ولم تجتمع هذه اللجنة قَطُّ حتى الآن!!!؛ إذ حُلّت الوزارة، وتغيّر الرئيس والوزير الذي شكّلها من خبراء لخدمة اللغة الوطن والأمة.

المبحث الثاني: العلاج

أقول: إذا ما عرفنا المشكلات والعيوب والعقبات، سهل علينا المتابعة والعلاج.

وأرى أن العلاج وتطوير الوضع اللغوي للأمة يمكن أن يكون في الخطوات والمواجهات الآتية:

- أن تكون لغة التدريس في كل المراحل التعليمية (المدرسية والجامعية) بالعربية السليمة المناسبة لسن الطلبة ومستوياتهم وقدراتهم، ثمّ الارتقاء بتلك القدرات، وفي كل التخصصات.
- عقد امتحان مستوى وقبول في أقسام اللغة العربية، وفي كل التخصصات العلمية والأدبية، على غرار "التوفل" باللغة الانجليزية، على أن يكون جادًّا وإلزاميًّا، ولدينا "التانال" العربي.
- عقد دورات لغوية عربية للمعلمين والمحاضرين في الجامعات: دورات تأهيل وتنشيط، ودورات إلزامية جادّة قبلية (قبل بدء التدريس).
- العناية الفائقة بمقررات اللغة العربية الإجبارية والاختيارية، والاهتمام بمضمونها في الجامعات واختباراتها: في أقسام اللغة العربية، وفي غيرها من التخصصات والكليات.
- تعيين مدقّقين لغويين ذوي كفايات عالية في الدواوين الحكومية والدوائر المختلفة.
- عقد دورات مسبقة، وموسمية تنشيطية للإعلاميين، ثم دورات أعلى تنشيطية بين الحين والآخر، على مستوى الإعلام المسموع والمقروء.
- الجدية والجِدّة والعمق في البحوث وأوراق العمل المقدمة في المؤتمرات العربية وندواتها.
- ابتعاث المتفوقين – فقط – في المراحل الدراسية والجامعية، والعناية بالمبدعين وتوجيههم ورعايتهم وتشجيعهم، فهؤلاء هم الذين نرتجي فيهم ومنهم الخير والتقدم، وعدم تدخل المحسوبيات في القبول والبعثات والتعيينات.
- الاهتمام بالترجمة والتعريب، وقد ظهرت لنا نتائج التعريب في الجزائر الشقيقة – مثلا- إيجابية واضحة جليّة في الأجيال المختلفة حينما قامت بذلك.
- الاهتمام من الحكومات والمسؤولين بمؤتمرات اللغة العربية، وتشجيعها بالرعاية والحوافز، وتكريم المشاركين ماديا ومعنويًا؛ على غرار ما يحدث من رعاية وتكريم لمؤتمرنا هذا من إمارة دبي ودولة الإمارات العربية الشقيقة.
- الإفادة المستمرة - بعد المتابعة والاطلاع على جهود الأمم والدول المختلفة في رعاية لغاتها وعلومها، والإفادة من اهتمامها، ولنا في تجارب بعض الأمم وعنايتها بلغاتها أسوة حسنة.

فها هي فيتنام كانت تطلب من كل مبتعث أن ينقل إلى اللغة الفيتنامية كتابًا من أحدث الكتب في تخصصه؛ ويبقى في منزله بمكافأة وراتب يضمن له العيش الكريم حتى ينجز مهمته، ويُعرض عمله على لجنة علمية متخصصة، فإن أقَرّتْه،

فتحت الدولة له أبواب المراكز المناسبة، وإلا فأنها تعطيه مهلة، فإن أخفق بعدها حاسبته الدولة ماديًّا ومعنويًّا؛ لأنه أهدر أموال الأمة بلا مردود أو فائدة.

والدولة الفرنسية تشجع على نشر لغتها في الدول التي كانت مستعمرات لها، أو بينهما علاقات وثيقة؛ فتعفي من يتطوع من أبنائها لنشر لغتها في تلك الدول، تعفيه من الخدمة العسكرية الإجبارية، فهو قد خدم الأمة الفرنسية في مجال لا يقل أهمية وأثرًا عن الخدمة العسكرية.

- أما مشكلة اللوحات والدعايات والإعلانات بلغات أجنبية، أو بلهجة عامية، فقد حدثت تجربة في إحدى الدول العربية الشقيقة في الثمانينيات من القرن الميلادي الماضي، إذ أعلنت وسائل الإعلام المختلفة إنذارًا من وزارتي التجارة والداخلية إلى جميع أصحاب المحلات التي يعنيهم الأمر بأنّ عليهم إزالة هذه الإعلانات واللوحات، وحددت مدّة زمنية – أحسبها أربعة أشهر – سيقوم بعدها المسؤولون في الوزارتين بسحب تراخيص محالّهم التجارية وإغلاقها، وقد رأيت أثر ذلك – بنفسي – حينذاك، وقد كان فعالاً إيجابياً.

وفي هذا الصدد أتذكر قولاً مأثورًا يُروى عن سيدنا عثمان وعن سيدنا عمر (رضي الله عنهما)، وهو: "إنّ الله ليزع في السلطان ما لا يزع في القرآن".

وأفهم من قولهما: السلطان" هنا: المعنى الواسع، أي كلّ من ولي أمرًا من أمور الأمة، وكان له سلطة عليهم؛ فالرئيس، والملك، والأمير، والوزير، والمدير، والعميد، ورئيس القسم، ومدير المدرسة أو الدائرة، والمعلم في صفّه ومدرسته، وحتى ربُّ البيت أو ربّتُه – كلٌّ منهم – سلطان على أفراد جماعته، كلّ واحد من هؤلاء سلطان؛ لأنه ولي أمرًا من أمور جماعته، وله سلطة أو سيادة عليها.

وأختم بالدعاء الحارّ لله عزوجل أن يحفظ أمتنا العربية والإسلامية من كل سوء أو شرّ، وأن يحفظ علينا ديننا، وأن يحفظ لنا لغتنا العزيزة الشريفة "صاحبة الجلالة" من كل سوء أو شر، وأتذكر أبياتا للشاعر العربي اللبناني "حليم دموس" (ت ١٩٥٧م)، قال يتغزّل بها:

لا تَلُمْني في هواها
أنا لا أهوى سواها
... فبها الأمّ تغنّتْ
وبها الوالد فاها
وبها الفنّ تَجلّى
وبها العلم تباهى
فأعيدوا يا بَنيها
نهضةً تُحْيي رَجاها
لم يَمُتْ شعب تَفانى
في هواها واصطفاها

وأذكّر أن اللغة تحيا بالاستعمال وتموت بالإهمال، وموت اللغة دليل على موت أهلها ماديًّا أو فكريًّا أو حضاريًّا"(٨).

هوامش البحث وحواشيه

(١) مقدمة ابن خلدون، ج٣، ص١٢٨٤.

(٢) اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، كيس فرستيغ، ص ٢١٥.

(٣) اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية، تشيم رابين، ترجمة وتقديم وتعليق د. عبد الكريم مجاهد، (٥٩)، "والنحو العربي المقارن في ضوء اللغات السامية واللهجات العربية القديمة"، د. يحيى عبابنة (٢٢).

(٤) اللغة العربية....، فرستيغ، ١٢٩/١٣١.

(٥) تأملات في اللغو واللغة، محمد عزيز الحبابي، ١٦٨، ١٧١، ١٤٢، وقوله: "إن أمة بدون لغة قومية أمة بلا شخصية"، فلا أمة بدون لغة"، (نفسه، ٩٩، ٨٠). وقد تصدّى للدفاع عنها بعض المستشرقين الأجانب المنصفين، أمثال لوي ماسينيون، والفرنسي هنري لوسيل. (دور اللغة في تماسك شخصية الأمة / الحبيب المخ)، محاضرة في ملتقى ابن منظور، ١٩٧٤، في كتاب "دراسات في اللغة والحضارة"، ص ٣٥، ٣٦. وانظر كتاب "عوامل تنمية اللغة العربية" د. توفيق محمد شاهين، ١٦، ٤٤-٤٥.

(٦) قد سمع صاحب هذا البحث هذه المعلومات مشافهة من عطوفة أ.د. رئيس مجمع اللغة العربية الأردني – السابق – عافاه الله وأثابه الثواب الحسن.

(٧) هم يعدّون اللهجات العربية المعاصرة الأردنية، المصرية، السورية (مثلاً) لغات حية، أما العربية الفصيحة لغة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف والتراث العلمي والأدبي العريق فيعدّونها لغة ميتة.

(٨) بحث "المعرّب والدخيل، وأثرهما في تطوير اللغة العربية العلمية"، أحمد الشرفي / في كتاب "تنمية اللغة العربية في العصر الحديث"، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٨م، ص ١١٣.

(×) قد درّس الباحث في ست دول عربية في التعليم العام، والكليات والمعاهد الجامعية، ومستويات الدرجة الجامعية الأولى (البكالوريوس أو الليسانس)، والدرجة الجامعية الثانية (الماجستير)، والدرجة الجامعية العليا والأخيرة (الدكتوراه)، مدة زادت على نصف قرن، وأشرف على عشرات كثيرة من الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراه، وشارك في تقويم عشرات وربّما مئات الرسائل الجامعية؛ ويقينًا أن مستوى كثير منها لا يسرّ ولا يبعث على الاطمئنان.

(××) إنّ "الثنائية والازدواجية معًا يهدّدان كيان العربية".

"فحيوية اللغة تقتضي أمرين: حيوية نظامها، وحيوية مستعمليها، ينضاف إلى ذلك حيوية جوارها (الإطار الحضاري).

(محاضرة لمحمد الهادي الطرابلسي، بعنوان: "مفهوم حياة اللغة وأسس تطوير العربية"، في كتاب "تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ص ٤٣).

وأما الأسس الفنية – لتطوير اللغة فهي تمرّ بأربعة (كذا!!!) مراحل رئيسية: هي:

تدريس اللغة، والإنتاج القيّم في اللغة المعنية، والعمل بها في الإدارة، وإجراء البحوث العلمية في صُلبها" نفسه، ص ٤٤.

أقول: أوافق رأي الزميل الكريم، وأثني على رأيه الذي يعكس غيرة على لغته، ودراية في دائها ودوائها.

مصادر البحث ومراجعه

١- تأملات في اللغو واللغة: تأليف محمد عزيز الحبابي، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس، ١٩٨٠م.

٢- تنمية اللغة العربية في العصر الحديث، دراسات الملتقى الرابع لابن منظور، ١٩٧٦م، وزارة الشؤون الثقافية، تونس ١٩٧٨م.

٣- دراسات في اللغة والحضارة، ملتقى ابن منظور، تونس، ١٩٧٤م، وزارة الشؤون الثقافية، تونس، ١٩٧٥م.

٤- عوامل تنمية اللغة العربية، د. توفيق محمد شاهين، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤٠٠هـ، يناير، ١٩٨٠م.

٥- اللغة العربية تاريخها ومستوياتها وتأثيرها، تأليف: كيس فرستيغ، ترجمة محمد الشرقاوي، المجلس الأعلى للثقافة، المشروع القومي للترجمة، ط١، القاهرة، مصر.

٦- اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية: تأليف تشيم رابين، ترجمة وتقديم وتعليق:د. عبد الكريم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢م.

٧- مقدمة ابن خلدون، نشرها وعلّق عليها، د. علي عبد الواحد وافي، ط٣، دار نهضة مصر بالفجالة، القاهرة، (د.ت).

٨- النحو العربي المقارن في ضوء اللغات السامية واللهجات العربية القديمة: أ.د. يحيى عبابنة، دار الكتاب الثقافي، إربد – الأردن، ٢٠١٥م، ١٤٣٦هـ.